

الأمير عبد القادر من خلال كتاب تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر

Al-Amir Abd El-Kader through the book of Thehfa - Al-Zair Fe Mathar Al-Amir Abd El-Kader wa Akhbar Al-Djazair

جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر – (الجزائر) تاريخ

دري فاطمة DRAI FATIMA *

fatima.drai@univ-mascara

تاريخ النشر: 2023/05/05

تاريخ القبول: 2023 /04/13

تاريخ الإرسال: 2021/09/07

ملخص: كتاب تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر حسب ما ذكره أبو القاسم سعد الله حتى الآن أفضل مصدر عن الأمير عبد القادر، وتبرز أهميته من خلال الوثائق التي اعتمدها في الدراسة بالإضافة إلى معاشته الكثير من الأحداث بحكم قربه من والده ومرافقته له في الكثير من الأحداث والمناطق سواء في الجزائر أو في فرنسا أو تركيا أو دمشق أين استقروا، وهو ما سنحاول تقديمه من خلال هذه الورقة البحثية التي ستمحور حول التعريف بالمؤلف والمصدر وظروف تقديمه ومحتواه مع الرجوع إلى كتابات أخرى عربية وأجنبية تناولت الأمير عبد القادر من جوانب مختلفة. الكلمات المفتاحية: تحفة الزائر؛ الجزائر؛ الكتابات؛ الأمير محمد؛ الأمير عبد القادر.

Abstract: The book of “ Thahfa al-zair fi mathar Al-Amir Abd - El- Kader Wa Akhbar Al-Djazair “, according to Abu Qasim Saadallah so far is the best source of AL-Amir Abd-El-Kader, and its importance is highlighted by the documents he adopted in the study in addition to living many events due to his proximity to his father and accompanying him in many events and regions .

This research paper that will focus on On the introduction of the author and the source and the circumstances of his presentation and content.

Keywords: Amir Abd-Al-kader; Thahfa al-zair; Algeria; Writings; Amir Mohammed.

مقدمة:

يعتبر الأمير عبد القادر عبقرية اجتمعت فيها الكثير من الخصال المفتقدة وجاء في زمن تزايدت فيه الظلمات، وهو شخصية متميزة دينيا ووطنيا حيث كانت له مكانة خاصة، خاض مع جيشه كفاحا ضاريا مع المستعمر الفرنسي الذي استخدم كل الحيل لدحر الأمير لكنه لم يفلح.

تناولت الكثير من الدراسات الأمير عبد القادر من حيث سيرته الجهادية أو من حيث بناء دولته الحديثة، والملفت للإنتباه في غالبية هذه الكتابات العربية أو الغربية هو تركيزها الكبير على المحطات العسكرية في حياة الأمير عبد القادر ثم على تنظيماته الإدارية والإهتمام بالأمير الفارس والمتصوّف .

سنحاول من خلال هذه الدراسة الموسومة ب: " الأمير عبد القادر من خلال كتاب تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر" الرجوع إلى الكتابات التي تناولت الأمير عبد القادر بشكل عام والتركيز على أحد أهم المصادر العربية وهو كتاب تحفة الزائر الذي تناول مختلف جوانب حياة الأمير عبد القادر، وتم الإعتماد في ذلك على المنهج التاريخي الذي يقوم على التحليل والنقد للتعريف بالمصدر وأهم الجوانب التي تطرّق لها من خلال هذا المصدر المهم.

1. الأمير عبد القادر بين الكتابات العربية والغربية:

كان الأمير عبد القادر شخصية فذة أثارت إعجاب الكثيرين وذاع صيتها في أرجاء الدنيا واحترمتها الشعوب نظرا لشخصيته وإنجازاته وكما سبق ذكره فإن العديد من الكتابات تناولت الأمير عبد القادر بالدراسة وهذا ما يطرح التساؤل حول دواعي هذا الإهتمام . قال عنه بطرس البستاني في كتاب "الأمير عبد القادر": "فضلا عن كونه من أعظم رجال السيف والسياسة فهو أيضا في عداد الكتبة والعلماء، وله رسائل وتآليف في التصوّف" (البستاني، ب، 1986، صفحة 620).

كما كتب عنه ميخائيل مشاقفة في حديثه عن فتنة الشام سنة 1860م قائلا: " الأمير عبد القادر الشهم، كان لا يترك فرصة تفوته عن الدفاع عنهم" (مشاقفة، م، 1908، الصفحات 174-175) ويضيف: " كان هذا الشهم الباسل متقلدا سلاحه، ومعه رجاله البواسل" (مشاقفة، م، 1908، صفحة 184).

برزت العديد من البحوث والدراسات التي خصّصت مجالاً مهماً لدراسة هذه الشخصية، وحول ذلك يقول عبد القادر شرشار أن شدة الإعجاب بهذه الشخصية من قبل الآخر تطلّبت هذا النوع من الموضوعية نظراً لما اتسمت به سيرته المثالية سواء كصديق أو كعدو لفرنسا من مواقف إنسانية مشهود لها بالحكمة وحسن التدبير (شرشار، ع، 2003، صفحة 19).

لم نجد هذه الموضوعية في جميع الكتابات الأوروبية فمنها من اتسمت فعلاً بالموضوعية لكن الكثير منها حملت أغراض معيّنة وبرزت فيها الروح الإستعمارية وروح التعصّب. يقول أبو القاسم سعد الله أن الكتابات التي كتبها الفرنسيون عن الأمير عبد القادر رغم كثرتها فهي لا تخرج في أغلبها عن الحط من دوره الوطني وجعله شخصاً متعصباً دينياً في البداية وصديقاً لفرنسا في النهاية، وهذا الموقف يلخّصه كتاب بول أزان (الأمير من التعصّب الإسلامي إلى القومية الفرنسية) ذلك أن إسناد دور المدافع الوطني للأمير يبطل عمل فرنسا في الجزائر (سعدالله، أ، 1983، صفحة 16).

يضيف سعد الله أن المؤرخ جورج إيفير (Georges Evier) تناول أيضاً الأمير عبد القادر وقال أنه لم يكن بطل جنسية عربية في الجزائر لأنها لم توجد ولم يكن سياسياً مجدداً يهدف إلى إدخال الحضارة الأوروبية على مواطنيه الذين كانوا نصف برابري، ولكنه كان مرابطاً طموحاً أراد أن يحل نفسه محل الأتراك واستغل لتحقيق ذلك الهدف غفلة الفرنسيين ونسبه الشريف وشجاعته الشخصية (سعدالله، أ، 1983). هذا الموقف الذي اتخذه هؤلاء المؤرخون لم يقتصر على الأمير عبد القادر بل شمل باقي زعماء المقاومة الوطنية (سعدالله، أ، 1983، صفحة 17).

من المؤرخين الفرنسيين الذين اهتموا بالأمير برونو إيتيان (Bruno Etienne) في كتابه عبد القادر والذي يقدّم وصفاً دقيقاً للأمير عبد القادر وعلاقته بأفراد أسرته وطلابه وسكان دمشق خلال الأيام الأخيرة من حياته، كما يحتوي الكتاب ببيولوجيا وافية عن حياة الأمير وسيرته العسكرية والعلمية والدينية وجرّد للأعمال الأكاديمية التي ألفت حول أعماله (شرشار، ع، 2003، صفحة 19)، وعن الأمير وحياته يقول برونو إيتيان: " تدعونا حياة الأمير عبد القادر وأعماله أكثر من أي شيء آخر إلى كتابة تأويلية عنها أكثر منها كتابة سيرة حياة" (برونو، أ، 2001، صفحة 11).

تعددت وتنوّعت أيضا الكتابات الإسبانية حول الأمير عبد القادر، ومنهم المؤرخ ميكيل دي إيبالزا فيرير (Mikel de Epalza Ferrer) الذي تحدّث بإسهاب عن رسائل الأمير عبد القادر للملكة الإسبانية إيزابيلا الثانية لطلب المساعدة وذلك بعد انحصار جيش الأمير في مواجهته للقوة الفرنسية المتزايدة لكن هذه المساعدة لم تتحقّق (كبداني، ف، 2017، صفحة 612)، كما انفرد هذا المؤرخ بتوثيقه للأحداث التي لها علاقة بالأمير عبد القادر والذي يمتدّه فيها ويفسّر وجوده وذكره في أهم الكتب والموسوعات والقصص والأدب العالمي الذي يبيّن الصدى الإيجابي عن الأمير خاصة أدواره الإنسانية والتي تمثّلت في حماية المسيحيين سنة 1860 (كبداني، ف، 2017، صفحة 614). تظهر موضوعية هذا المؤرخ من خلال وصف الأمير بالزعيم واختار في ذلك العبارات المناسبة حيث وصف حركة الأمير بالمقاومة وفرنسا بالغازية.

من جهته المؤرخ الإسباني مانويل مالودي مولينا (Manuel De Malo D e Molina) يصف المقاومة في الجزائر بالأسطورة الخرافية من ما يصل من أشعار ويقول أن الحرب تؤدي إلى خلق شعراوق ورنان وقدّم أمثلة عن الأشعار التي كتبت حول مقاومة الأمير عبد القادر والتي قام بترجمتها والتي قال عنها أنها بيّنت مكانة الأمير عبد القادر في قلوب الجزائريين وقال أن القضية هي قضية ولاء تبيّن عظمة هذا الرجل الذي يعتبر حامي العباد والدين (كبداني، ف، 2017، صفحة 613).

الملاحظ أن الكتابات الإسبانية قد ركّزت على شخصية الأمير خاصة في جانبها الديني التي كانت ضرورية لنجاح مقاومته، وأهمية مدينة معسكر وبالتالي فإن هذه الشخصية كانت لها دورها في تأسيس الدولة الجزائرية، كما أن كل الظروف والمعطيات منحت الأمير المزايا التاريخية المهمة.

لقد اتفق العديد من الكتابات الإسبان على عظمة شخصية الأمير عبد القادر من خلال مجموعة معطيات مهّدت الطريق لتكون هذه الشخصية عالمية سواء في المجال العسكري أو السياسي أو الأدبي.

من بين الكتابات الأوروبية نجد الكتابات الإنجليزية وكنموذج منها نأخذ كتاب الكولونيل تشرشل (Charles – Henry Churchill) وكتابه حياة الأمير عبد القادر. عزم تشرشل على كتابة سيرة الأمير عبد القادر وفي شتاء 1859-1860 أقام في دمشق واتفق مع الأمير عبد القادر على الجلوس معه ساعة يوميا طيلة 5 أشهر ومن هذا الإملاء الشخصي

والوثائق الأصلية التي حصل عليها تشرشل جاء كتاب حياة عبد القادر. يقوم الكتاب على مبدئين: تمجيد بطولة الأمير الحربية وتمجيد مواقفه الإنسانية (تشرشل، ه، 2005، صفحة 36) .

أهم المواضيع التي ركّز عليها تشرشل في هذا الكتاب هي التربية والتكوين الطبيعي والديني للأمير والبيئة الإجتماعية التي كان يتفاعل معها والنظام الإداري الذي حاول إقامته ومناوراته وخططه العسكرية، وروح التقدّم والإصلاح التي تميّزها وتسامحه حتى مع ألد خصومه وحسن معاملته للأسرى وصبره على المكاره وعدم يأسه حتى في أضيق ساعات العسر وإعجابه بالحضارة الغربية والتقدم الإنساني وتدخله الإنساني أثناء فتنة الشام وحبّه للعلم وتعلّقه بالدين وكرمه وعزوفه عن الدنيا وشهامته (تشرشل، ه، 2005، صفحة 52).

من جهتهم الألمان كان لهم اهتمام بشخصية الأمير عبد القادر من جوانب متعدّدة ومن بينهم الضابط كليمانس لا مبينغ (Clements La Mping) الذي عاش في الجزائر لمدة سنتين منذ 1839 ثم غادرها وعاد إلى وطنه ألمانيا ووضع كتابا بعنوان "ذكريات من الجزائر" نشره سنة 1844 (دودو، أ، 1975، صفحة 93)، وقد تحدّث عن الأمير عبد القادر الذي قال أنه شارك في معركة ضدّه في سهل الشلف ورآه من بعيد، ويؤكد أنه لا يستطيع إنكار إعجابه بهذا الرجل فقد كان وحده روح المعركة ولولاه لما وقفت ثلاث قبائل في وجه الفرنسيين، ويتمنى للأمير مصيرا آخر لأنه إذا لم يسقط في المعركة فإن أصدقاؤه سيخونونه كما حدث قديما ليوغرطة ويقول أنه يشبهه في شجاعته وصموده إلى حد كبير، لكن الأمير يفوقه في نبلة وشهامته (دودو، أ، 1975، صفحة 96)، ويضيف قائلا أن الأمير حرّم على رجاله قتل الأسرى وكان يعامل المرضى معاملة إنسانية كبيرة (دودو، أ، 1975، صفحة 96)، لكن الملاحظ أن هذا الضابط لم يرجع أخلاق الأمير وشخصيته إلى بيئته أو دينه بل قال أن ذلك يعود إلى ثقافة الأمير التي تلقاها عن والده الذي عاش مدة في إيطاليا واطلع على عادات أهلها وتقاليدهم.

من الكتاب الروس الذين تناولوا الأمير في كتاباتهم لوتسكي (Vladimir Borisovich Lutsky) في كتابه " تاريخ الأقطار العربية" حيث يقول عنه أنه لم يكن مرابطا عاديا بل قبل كل شيء محاربا جريئا وفارسا ماهرا وقناصا صائبا وقائدا عسكريا عبقريا، وكان

خطيبا ملهما يسحر السامعين كلامه الحكيم الفصيح وكاتبنا فذا ومنظما قديرا (لوتسكي، ف، 2007، صفحة 189).

ثم يتحدث عن حياة الأمير فيقول أنه بعدما أصبح حاكم دولة كبيرة واصل حياته المتواضعة فأكل البسيط من الطعام وشرب الماء القراح ولم يتحل بأية حلية، وكان أمينا لتقاليد القبائل الرحل وفضل السكن في خيمة، وكانت ثروته الوحيدة مكتبة ممتازة (لوتسكي، ف، 2007، صفحة 190).

3. التعريف بالأمير محمد بن الأمير عبد القادر:

هو محمد بن الأمير عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن المختار، ولد بالقيطنة سنة 1256هـ/ 1840م (الزركلي، 2002، الصفحات 213-214) وهي تقع على وادي الحمام بمعسكر وهو أكبر أبناء الأمير عبد القادر من زوجته خيرة وهي ابنة عمه.

ولد في فترة اشتداد الصراع ضد الفرنسيين، حيث عاش 8 سنوات من الحرب ضد فرنسا (1840-1847)، و5 سنوات من الأسر في سجون فرنسا، ثم سنتين في بروسه، ثم انتقل إلى دمشق التي استقر بها (سعدالله، أ، 2007، صفحة 119)

لم يعيش الأمير محمد حياة مستقرة في صباه حيث عاش حياة الخوف على وقع الحرب والأسر والغربة وزلزال بروسه، فلم يعرف حياة اجتماعية هادئة. ويقول سعد الله أن والده تولى تعليمه في سجن أمبواز ووضعه تحت إشراف صهره مصطفى بن التهامي إلا أن ذلك لم يعطيه تعليما منتظما (سعدالله، أ، 2007، صفحة 120)، إلى أن انتقل إلى دمشق في مرحلة المراهقة أين انتظم في التعليم وأخذ من علمائها في الفترة التي كانت بلاد المشرق تعرف نهضة أدبية وسياسية.

تأثر الأمير محمد بذلك كثيرا خاصة وأنه كان أكبر أبناء الأمير عبد القادر وكان يرافقه أينما ذهب، وكان يحضر مجالسه مع أعيان بلاد الشام وقد قال هو ذلك بأنه كان يلزم والده ومحتذيا حذوه وأنه قرأ عليه التوحيد والحديث والنحو واستفاد منه (سعدالله، أ، 2007، صفحة 120).

كان الأمير محمد مهتما بالأدب والتاريخ وظهرت ثقافته من خلال مؤلفه تحفة الزائر وحتى من المؤلفات الأخرى كما اهتم بالقضايا التي عرفتها الفترة التي عايشها.

إلى جانب اهتمامه بالتاريخ والأدب حصل الأمير عبد القادر على لقب "باشا" (سعدالله، أ، 2007، صفحة 120) وكان ضابطا في الجيش العثماني ويقول الزركلي أنه كان يحمل

رتبة فريق في الجيش العثماني، وقد أكد ولائه للدولة العثمانية من خلال كثرة دعائه لسلطانها، وقد حصل على وسام وراتب من السلطان عبد الحميد (سعد الله، أ، 2007، صفحة 121).

بعد وفاة والده أصبح هو كبير العائلة بعد مبايعة إخوته له في وثيقة وقعوها بذلك. ترك الأمير محمد بعض الأبناء منهم علي زين العابدين. للأمير محمد عدة تأليف وهي:

- 1- تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر.
- 2- عقد الأجياد في الصافنات الجياد (الزركلي، 2002، صفحة 214).
- 3- نخبة عقد الأجياد وهو مختصر لعقد الأجياد في الصافنات الجياد (الزركلي، 2002، صفحة 214)، وهو مطبوع في طبعتين 1293هـ و1326هـ، وكل من عقد الأجياد ومختصره هما في الخيل وذكر محاسنها (الزركلي، 2002، صفحة 214) وتاريخها وآدابها.
- 4- مجموع ثلاث رسائل، وهي مطبوعة في مصر وهذه الرسائل هي:
- 5- ذكرى ذوي الفضل في مطابقة أركان الإسلام للعقل.
- 6- كشف النقاب عن أسرار الإحتجاب.
- 7- الفاروق والترياق في تعدد الزوجات والطلاق (الزركلي، 2002، صفحة 214).
- 8- كتاب نزهة خاطر في قريض الأمير عبد القادر، وقد جمع فيه بعض ما تفرّق من شعر الأمير عبد القادر.

4. كتاب تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر:

إن كثرة الإلحاح على كتابة سيرة الأمير عبد القادر هي التي جعلت الأمير محمد يفكر في كتابة تحفة الزائر، خاصة وأنه كان كبير العائلة وكان يلزم والده في الكثير من تحركاته.

اعتمد الأمير محمد على وثائق رسمية متمثلة في المعاهدات والإتفاقيات ووثائق عائلته والمراسلات الخاصة بالأمير عبد القادر والكتب العربية والأجنبية التي تناولت الأمير عبد القادر بالدراسة.

شمل كتاب تحفة الزائر مرحلة كفاح الأمير عبد القادر ضد الإستعمار الفرنسي الذي ينتهي سنة 1847، ونلاحظ أن المؤلف توقّف عند سنة 1847 أي أنه استثنى الفترة ما بين 1847-1883 من الدراسة.

يعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر التي أرخت لتاريخ الجزائر خاصة وأنه اعتمد على مجموعة هامة من الوثائق المرتبطة بعائلة الأمير ومراسلاته. كما يمكن اعتبار هذا المؤلف أدبيا إضافة غلى صفته التاريخية حيث اشتمل على أشعار وقصائد للأمير عبد القادر.

1.4 وصف الكتاب:

جاء هذا المؤلف في جزأين: الجزء الأول في سيرة الأمير عبد القادر السيفية، إلا أنه لم يكن مقسما لا إلى أبواب ولا مباحث، فلم يخضع بذلك إلى منهج علمي دقيق بل استخدم عناوين صغيرة وقد تضمن الجزء الأول:

مقدمة في ذكر جغرافية أقسام المغرب، ثم ذكر حدود بلاد الجزائر ومساحتها وما اشتهر فيها من المدن والجبال، ثم ذكر ابتداء عمران المغرب وحوادث دول الأشراف والعرب والبربر، ثم ذكر للبربر وشعائهم، ثم ذكر لدول بلاد المغرب الأدارسة والأغالبة وصولا إلى الموحدين والسعديين، ثم الحديث عن الدولة العلية في المغرب الأوسط وإفريقية، ثم الحديث عن ثورتي ابن الأحرش ومحمد بن الشريف، ثم ذكر تسلط الفرنسيين على مدينة الجزائر وذكر معاهدة الإستسلام، ثم الحديث عن معارك الأمير عبد القادر بعد بيعته، ثم ذكر كفاح الأمير ضد الفرنسيين، وتنظيمه للجيش، ثم معاهداته مع فرنسا وغيرها من الوقائع وقد جاء في نهاية الجزء الأول: "... بعد أن قهر رجالها وأباد أبطالها وأشغلها خمسة عشر عاما إلى أن أراد الله إنفاذ ما قدره وقضاه... فاستسلم لقضاء مولاه وسلم إليه نفسه برضاه على شروط موقع عليها من الجانبين."

وفي الأخير يقول ويتسلم سيفه انتهت سيرته السيفية وهي الجزء الأول ويليه الجزء الثاني في سيرته القلمية أو العلمية والله ولي التوفيق (الأمير محمد، 1903، صفحة 326).
الجزء الثاني: يخص السيرة القلمية، وقد تضمن ركوب الأمير البحر إلى طولون ولما اتفق له مع فرنسا، وقد تضمن هذا الجزء ذكر تحركات الأمير عبد القادر ومساره من حمله إلى طولون، ثم إلى سجن أمبواز، ثم وصوله إلى القسطنطينية فبروسة وذكر حادثة الزلزال، ثم ذكر إنتقال الأمير إلى دمشق وما صادفه من إحتفال فيها، وكذا زيارته لبيت المقدس .

تضمن هذا الجزء أيضا ذكر لحوادث جبل لبنان، وحادثة دمشق، وذكر وفاة والدته، ثم توجهه إلى الحجاز، ثم إلى مكة الطاهرة فالمدينة المنورة، ثم الأستانة باريس ورجوعه إلى

الشام، ثم حديثه عن وفاة الأمير عبد القادر وما أدرجته الجرائد الفرنسية وذكر لمرضه ورسائل التعازي والمراثي، وفي الأخير خاتمة في نسبه الشريف.

في نهاية الجزء الثاني يقول: "... وهنا انتهى القلم في تنسيق ما قصدناه على الوجه الذي أردناه فجاء بحمده تعالى كتابا كَلَّلَ الصدق تيجانه وسلسل التحقيق غدرانه، ولعبت يد التهذيب بأغصان سطره... وقد وفق الله سبحانه لإتمامه واستنشاق مسك ختامه في منتصف ربيع الأول 1307هـ وسنة 1890 ميلادية والحمد لله في الإبتداء والإنتهاء والصلاة والسلام على ذي السنن والنبأ وعلى آله وأصحابه أولى النهي صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين (الأمير محمد، 1903، صفحة 141).

1-1-4 ذكره لنسب أبيه:

أخذ نسب أبيه حسب ما جاء في كتب النسب والشرف كالحافظ سيدي عبد الرحمن بن محمد الفاسي في جوهرة العقول في ذكر آل الرسول والشيخ أحمد بن احمد بن ابي القاسم العشموي، وكتاب العلامة عبد الله الونشريسي صاحب المعيار، والفهامة المقري التلمساني في رياض الأزهار وغيرهم ممن ثبت عندهم وزينوا به صحائف كتبهم حيث يقول في ذلك: "... ها أن أرويه كما تلقيته من فيه رضي الله عنه فهو عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد المختار بن عبد القادر بن أحمد المشهور بابن خدة بن محمد بن عبد القوي بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن محمد بن مسعود بن طاووس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وأمه فاطمة الزهراء بنت سيد الوجود محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم وعظم (الأمير محمد، 1903، صفحة 297).

2-1-4 مبايعته:

يقول الأمير محمد أنه عندما توالى عليهم فيما بينهم الكرب والنكد وتسلط على بلادهم العدو ومنعهم القرار... اجتمع الأشراف والعلماء وأعيان القبائل من العرب والبربر وقدموا على حضرة سيدي الجد وألزموه أن يقبل بيعتهم على الإمارة لنفسه أو لولده سيدي الوالد... ولما كان عاجزا عن القيام بأعبائه ورأى أن ولده المنوه به قد بلغ أشده

وترشح للإمارة وتأهل لها... وقبل سيدي الوالد ما انشرح إليه صدر والده من إمارته قائلاً
إننا لها إننا لها (الأمير محمد، 1903، صفحة 96).

عن ظروف المبايعة يقول: " ...ولما تلاحق الناس الذين تعيد بحضورهم للبيعة وجلس
سيدي الوالد تحت الشجرة قام والده فبايعه على السمع والطاعة ودعا له ثم لقبه
ناصر الدين وقام عمه سيدي الجد لأمي السيد علي أبو طالب وبايعه وكذا الأخوة وسائر
القرابة ثم الأشراف والعلماء والأعيان والرؤساء... بايعوه على ما بايعه عليه والده
(الأمير محمد، 1903، صفحة 97).

يقول الأمير محمد أن البيعة تمت في 3 رجب 1248هـ الموافق ل 27 نوفمبر 1832م،
نجد أن تشرشل قال أن البيعة تمت في 21 نوفمبر 1832م وقد وصف البيعة أن الأمير
أعلم بكل ما دار وفي هدوء وانضباط نفس وبدون زهو قال: " إن من واجبي طاعة أوامر
والدي".

لقد اكتفى الأمير عبد القادر بلقب الإمارة وتجنّب الخلافة حتى لا يصطدم بالخليفة
العثماني أو بسلطان المغرب عبد الرحمن، وهذا ما لم يذكره ابنه.

3-1-4 تنظيم الدولة:

بعد البيعة عمل الأمير عبد القادر على اختيار رجال تتوفر فيهم القدرة والكفاءة والإلتزام
ليتحملوا معه أعباء المسؤولية أمام الله وأمام الشعب وفي ذلك يقول الأمير محمد: "
...استوزر محمد بن العربي واستكتب ابن عمه السيد أحمد بن علي بن أبي طالب
والسيد الحاج مصطفى بن تهامي... وولي الحاج الجيلاني بن فريحة ناظر خزينة المملكة
...ولنظارة الأمور الخارجية عين الحاج الميلود بن عراش وبث العمال والقضاة في سائر
الجهات ورتب مجلساً للشورى يشمل 11 عضواً من أجلة العلماء وجعل لرئاسته قاضي
القضاة أحمد بن الهاشمي المراهي..." (الأمير محمد، 1903، صفحة 104).

4-1-4 تنظيم الجيش:

أولى الأمير عبد القادر أهمية للجانب العسكري للحفاظ على سلطته ولمواجهة العدو
وأدرك أن الحماسة وحدها لا تكفي وأن الشجاعة بلا تنظيم لا تكفي وأنه لابد من
تنظيم الجيش لذلك عقد مجلساً عمومياً حسب ما أورده الأمير محمد من رجال الدولة
وأعيان الرعية وزعمائها وخطب فيهم خطبة أوضح فيها فوائد العسكر النظامي ومنافعه
وأخبرهم أنه اعتزم على تنظيم عدد منه كاف فأجابته الجميع غلى ذلك ووافقوه عليه

...المنادي بأعلى صوت ..أنه صدر أمر مولانا ناصر الدين بتجنيد وتنظيم العساكر من كافة البلاد فمن أراد الدخول تحت اللواء المحمدي ويشمله عز النظام، فليسارع إلى دار الإمارة معسكر ليقيد اسمه في الدفاتر الأميرية، وتنظم الجيش في ثلاث فرق فرقة المشاة، فرقة الخيالة، فرقة المدفعيون (الأميرمحمد، 1903، صفحة 120).

4-1-5 نهاية الكفاح:

في شرح الظروف التي أنهى فيها الأمير عبد القادر كفاحه يقول: "...فلم يسعه حينئذ إلا النظر في أمره وانتهز الفرصة في خلاصه من مكائد العدو ومكره فجمع خاصته وذويه وقال: يا قوم إن الأحوال كما ترون والأخبار على ما تسمعون فما الرأي وما الحيلة فقالوا الرأي لسيدنا فالذي يراه نحن معه فيه، فقال لا أرى إلا التسليم لقضاء الله تعالى والرضى به ...إلى أن فقدت المعاضد والمساعد ...".

نرى في ذلك أن الأمير يقول أنه تم الإجماع على أن يتم التسليم للفرنسيين، دون ذكر لسلطان المغرب بينما يقول تشرشل أن الأمير عبد القادر طرح مشكل حول لمن يكون الإستسلام إلى المسيحيين أو إلى أيدي مولاي عبد الرحمن، وترك لهم الحكم في الأمر ويقول أنه يفضل ألف مرة أن يثق فيمن حاربه على الوثوق فيمن خانه (تشرشل، ه، 2005، صفحة 314).

عن مطالب الأمير عبد القادر الخاصة بالتسليم فيقول الأمير محمد: "... إن الأمير عاجله الحال أن يكتب كتابا في ذلك إلى الجنرال لامورسيير رئيس الجيوش الفرنسية فبعث رسولا من حاشيته ليخبر الجنرال باللسان ...فبلغ الرسول الرسالة الشفاهية إلى الجنرال فاهتز لذلك"، بينما يقول تشرشل: "... لم يستطيع الأمير عبد القادر أن يكتب مطالبه لأن المطر كان مايزال ينزل بغزارة ثم اخذ قطعة من الورق ووضع عليه خاتمه وأرسلها في الحال مع فارسين وكلفهما بإظهار خاتمه للجنرال كعلامة على التفويض منه بإبداء المطالب التي سيقدمانها باسمه شفويا" (تشرشل، ه، 2005، صفحة 314).

هل يمكن اعتبار ما قام به الأمير عبد القادر تسليما كما يقول ابنه الأمير محمد هذا غير صحيح لأن الأمير عقد اتفاقا مع العدو الفرنسي اشترط فيه الذهاب إلى عكا أو الإسكندرية على متن باخرة تنقله بعد وقف الحرب، وقراره هذا كان مرتبطا بقبول أو رفض السلطات الإستعمارية التي رحبت بذلك بل وافقت على طلبه في الرحيل مع من يريد مرافقته.

كما نجد أيضا ما يؤكد أن الأمير لم يسلم وذلك من خلال الرسالة التي بعثها الأمير إلى لا مورسيير عندما أصبح وزيرا للحرب والتي هنأه فيها بمنصبه وذكره بالميثاق والقيام بواجب الوفاء ومن جملة ما كتب: "...كثيرا ممن لا إمام لهم بما وقع بيني وبينك يعتقدون أنك غلبتني في الحرب وأجرتني على التسليم والبقاء فينبغي لك أن توضح لهم القضية وتوقفهم على ما جهلوه من أمرنا وبذلك تجد منهم من يسعفك ويأخذ بيدك في الوفاء بعهدك الذي هو في الحقيقة عهد دولة فرنسا بل الشعب كله لكونك كنت وقتئذ رئيس جيوشهم ونائب ملكهم في كل ما تجريه وبالجملة فإن وفيهم فإنكم تنالون فخرا كبيرا بين الأمم والدول وإن نقضتم وأخلفتم فلا شك أنكم مرتكبون أمرا شنيعا يسقط به قدركم ويقبح بارتكابه ذكركم في العالم كله، حرّر في 7 شعبان 1265هـ/27 جوان 1849 (الأميرمحمد، 1903، صفحة 16).

يواصل قائلا فحرك المكتوب من دي لامورسيير سواكن الإحن فأمر بنقل الأمير من بو إلى أمبواز. نجد أن تشرشل يقول أن الأيام مرت وأسابيع وشهور دون جواب (تشرشل، هـ، 2005، صفحة 333)، وأن سبب نقلهم من بو إلى أمبواز هي محاولة مرافقيه الوقوع على الحراس ونقل العدد الممكن منهم وتذوق حلاوة الثأر في حركة يائسة من التضحية ما داموا غير مسلحين وقد قالوا فيما بعد أنهم لم يفكروا في الهروب بل رغبهم في الموت حتى يبقى دمهم عارا أبديا لفرنسا... من أجل المطالبة بالوفاء بالوعد الذي أعطي لسيدنا، وبعد رفضهم الحرية نقلوا مع الأمير عبد القادر إلى قصر أمبواز.

الخاتمة:

رغم أن هذا المصدر يعتبر من أهم المصادر التي تناولت الأمير عبد القادر بالدراسة إلا أنه حمل بعض المغالطات خاصة وأنه اعتمد على بعض المصادر الغربية، لذلك أصبح من الواجب إعادة دراسته للحفاظ على صورة الأمير عبد القادر رمز المقاومة ومؤسس الدولة الجزائرية الحديثة والوقوف والتصدي لكل المحاولات الإستعمارية الرامية لتشويه سيرته وذلك من خلال التدقيق أكثر والتحصيص في كل ما ورد عن الأمير عبد القادر وما كتب حوله من كتابات عربية أو غربية.

يبقى الأمير عبد القادر شخصية حافظت على مكانتها ليس فقط على المستوى الوطني أو العربي الإسلامي لكن أيضا على المستوى العالمي. وهو عبقرية اجتمعت فيها الكثير من

الخصال المتقدمة وجاء في زمن تزايدت فيه الظلمات، وهو شخصية متميزة دينيا ووطنيا حيث كانت له مكانة خاصة، خاض مع جيشه كفاحا ضاريا مع المستعمر الفرنسي الذي استخدم كل الحيل لدحر الأمير لكنه لم يفلح.

المصادر والمراجع:

المؤلفات:

- الأمير محمد بن عبد القادر. (1905). تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر الإسكندرية، لبنان: المطبعة التجارية عزوزي وجاويش، - البستاني، بطرس. (1986). الأمير عبد القادر (ط3). بيروت، لبنان: مطبعة المعارف، مع 11.
- الزركلي، خير الدين. (2002)، الأعلام (ط15). بيروت، لبنان: دار العلم للملايين، ج6.
- برونو، إيتين. (2001). الأمير عبد القادر (ط2). ترجمة ميشيل خوري، دار الفارابي.
- تشرشل، تشارلز هنري. (2005). حياة الأمير عبد القادر، (ترجمة وتقديم وتعليق، أبو القاسم سعد الله). الجزائر: دار الغرب الإسلامي.
- دودو، أبو العبد. (1975). الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830 - 1855). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- سعد الله، أبو القاسم. (2007). أبحاث وآراء، ج2، الجزائر: دار البصائر.
- سعد الله، أبو القاسم. (1983). تجارب في الأدب والرحلة. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- لوتسكي، فلاديمير. (2007). تاريخ الأقطار العربية الحديث (ط9). بيروت، لبنان: دار الفارابي.
- مشاققة، ميخائيل، (1908). شاهد العيان بمجاذب سوريا ولبنان. مصر: ملحم خليل عبده وأندراوس حنا شخاشيري.

المقالات:

- شرشار، عبد القادر. (2003). "شخصية الأمير عبد القادر من منظور الآخر ترجمة كتاب عبد القادر لقوستاف دوقا أمودجا". مجلة إنسانيات. مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية. (المجلد VII، العدد (19-20) ص. 19-31)
- كبداني، فؤاد. (2017). "صورة الأمير عبد القادر في الكتابات الإسبانية". مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة قاصدي مرباح. (العدد 17) ص. 611 - 618.